كتاب داروين على صواب

هكذا يقول السير « أرثر كيث »

أكبر علماء الانجليز ، ورئيس جمعية العلوم في انجلترا

عاد مذهب النشوء ونظريته الى الظهور مرة أخرى في هذه الأيام ، وشهدت مدينة « ليدز » في انجلترا منذ بضعة اسابيع حركة تجديدية في العلم ، ورأيا قاطعا في مسألة طال فيها الأخذ والرد سنين عدة ، ولقيت من الخصوم والانصار ما لم

صورت العلامه الكبير « شارلس داروين » الذي أذاع على الملأ مذهبه الشهير الذي قرر فيه أصل نشأة الانسان من القرد ، وتطوره حسب مذهب النشوء والارتقاء —

وها هو العلم الآن — في سنة ١٩٢٧ يحقق صدق مذهبه ، ويدعم براهينه ويؤيد رأيه

تلقه نظرية أخرى قبلها ، ومكث مجال الأخذ والرد منذ نصف قرن من الزمان ، وأخيراً قام الاستاذ « أرثر كيث » رئيس جمعية تقدم العلوم في بريطانيا يقرر صحة رأي داروين في محاضرة قيمة رائعة ، ويؤكد ان داروين كان فيما قرره وفصله من الآراء على صواب ، مؤيداً قوله بما ظفر به من البراهين العلمية والعملية التي هدته اليها تجاربه الطويلة

وقد سمع الحاضرون من هذا العالم الكبير قوله بسكون تام وصمت رهيب :

« أكان داروين على صواب حين قرر أن الانسان ، قد تطور — بعد أن مر بكثير من العوامل والقوى البيولوجية التي يمكن شرحها وتحليلها ومعرفة كنهها — وانه قد تدرج في معارج الرقي من مرتبة « القردية » الى مرتبة الانسانية التي وصل اليها الآن ؟ »

الجواب على ذلك بالايجاب !

نعم أقرر لكم انه كان مصيباً في رأيه !

وليس يعرف قيمة هذه الكلمة التي فاه بها ، إلا من عرف قيمة السر أرثر العلمية ومكانته الرفيعة من بين علماء هذا العصر ، وأدرك أهمية المنصب الذي يشغله منصب رئيس هذه الجمعية العلمية العظيمة — وما عرف به من سعة الاطلاع وادمان الدرس من صغره ، ودقة ابحاثه التي اشتهر بها في دراسته البيولوجية ، وبحوثه في تركيب الانسان وانضائه ونحو ذلك

لهذا كان لاقواله صدى ودوي هائلان في كل انحاء الأرض ، وليس سبب ذلك الاهتمام منحصراً في قيمة الاستاذ الرئيس العلمية وحدها ، ولا لأن رأيه يمثل رأي العلم الحديث ويلخص أحدث ما وصل اليه من النتائج فقط ، بل هنالك سبب آخر لا يقل عن هذين السببين اهمية وخطراً

ذلك هو الظروف التي ألقيت فيها تلك الكلمة ، والمكان الذي نطقت فيه فان كلمة « نعم » التي نطق بها الاستاذ بلهجة الجازم المتيقن ، قد قيلت في نفس المكان ، وعلى نفس المنبر الذي وقف عليه من قبله الاستاذ الكبير السير « ريتشارد أوين » اكبر علماء عصره منذ تسع وستين عاما ، وألقى كلمة طافحة بالنزعة والتهكم

بهذه الفكرة نفسها ، وسكب عليها وابلا من النكات وهزىء بمن يراها أو يدين بصحتها وكان ذلك في سنة ١٨٥٨

ولا جرم قد اطرد رقي العالم والعلم — كما يقول السير أرثر وظهرت من الاختراعات الباهرة ما لم يكن يتوقعه اهل ذلك الزمن ، وأصبح الاستاذ بفضل هذا التقدم يلقي كلمته هذه على سامعيه القريبين والبعيدين النائين في اقاصي الارض بفضل اللاسلكي الذي يحمل صوته الى كل هذه الجماهير المنصتة اليه والمتلقفة لكل ما يقوله لها

ولقد لقيت هذه الفكرة العالية التي أخرجها العلامة « داروين » كثيرا من المؤيدين والمعارضين ، وهاهي الوقائع تؤيدها الآن وتثبت صحتها بعد ان استحال الجزم بها بعدم توفر الادلة من قبل على تأييدها التأييد الكافي الذي يخرس ألسنة المكابرين ، ويذهب بشكوك المستريبين ! ومهما يكن من أمر فليس ينكر أحد على العلامة « داروين » تلك العبقرية الجبارة وذلك الذكاء الواسع الذي لا تند عنه شاردة ولا واردة ولا تفوته ملاحظة ادق الاشياء وسبر اغوارها سبراً يهديه الى كنهها ويقفه على سر تسلسلها وارتباط بعضها ببعض ، هذا الى درس واسع وأناة في البحث وصبر لا يضارعه صبر !

ولقد اهتدى العلامة « داروين » متسلحا بهذه المواهب العظيمة الى قانون التطور ومذهب النشوء ، ومن الغريب انه كان يكتب الفصل الاول من كتابه ، في نفس الوقت الذي نادى فيه السير « ريتشارد أوين » بان الانسان من سلالة قردية

لقد أحسن الاستاذ « داروين » شرح فكرته هذه في كتاب أصل الانواع ، وحلل نظريته في اختيار الطبيعة الاصلح دائما ، وذهاب ما لا يحتمل البقاء ، وتطور الاشياء تطوراً ناميا مطردا متدرجا في سبل التحسين ، سائراً في طريق الكمال ، ثم اتبع هذا السفر الثمين بكتبه الاخرى الجليلة الخطر ، وكان في كل ما قرره معتمداً على الحقائق العملية الثابتة ، مستشهدا دائما بما يؤيده الواقع ، ويدعمه البرهان الصحيح

وبعد ان مر على ذلك الحادث ستة وخمسون عاما ، ظفرنا الآن بالدليل العلمي

الصحيح الذي يلقي لنا الضوء على هذه المسألة . وقد مضى هذا الاكتشاف الحديث الى التحقق والجزم فيها بعد ان طال الشك و تردد والارتياب في صحتها وأصبحنا نستطيع ان نلخص في صفحات قليلة ، ما احتاج داروين في سبيل تفسيره وايضاحه الى مجلد ضخم

وقد ظهر لنا ان فكرته تحتاج قليلا من التحوير والتبديل ، ولكنها — على كل حال فكرة صحيحة في أساسها وجوهرها ، لم تتأثر بكل تلك الهاجمات العنيفة عليها ، بل هي أقوى من ان تتأثر بشيء ما وستظل ابداً قوية متينة الاساس على مر الايام وكر العصور

ان كل ما نراه من الادلة والبراهين متضافر جميعاً على اثبات ان الانسان ناشيء من سلالة قردية ، وانه سليل حيوان من هذه الفصيلة لا يزيد في كيانه وتركيب جسمه عن نوع « الشمبانزي » ، وان ذلك كان في عصور سحيقة متغلغلة في القدم ، ربما بلغت مليونا من السنين

ولتبيان صحة هذا المنشأ ، نسوق للقارىء دليلين رئيسيين يثبتانه ويؤيدانه بوضوح وجلاء :

(١) (٢)

(١) صورة الهيكل العظمي لانسان حديث

(٢) صورة هيكل عظمي متحجر لقرد عاش منذ خمسين ألف سنة ومن هاتين الصورتين يتبين القاري، كيف كان نمو الانسان وتطوره !

أنظر كيف طالت أطرافه وقصر جسمه ، وكبرت جمجمته ، بسبب اتساع مخه!

(الدليل الاول) كثرة أوجه الشبه الدقيقة المحكمة في تركيبهما الجثماني ، وطريق نموهما ، وما في ذلك من المحاكاة والمماثلة العجيبة التي بين الانسان ، وهذه الفصيلة القردية كالغوريلا والشمبانزي والاورانج أوتان مثلا

(الدليل الثاني) الحفريات القديمة التي عثر بها الباحثون ، والتي كانت تعيش في تلك الازمان الغابرة البعيدة العهد ، وشدة احكام الشبه بينها وبين تلك السلالة القردية

ولقد استطاع الاستاذ « كيث » أن يدون نحو مائة ملاحظة هامة في تحليل هذه الناحية كما انه نبه على هذا التماثل العجيب بين تركيب المخ في كلا النوعين ، الانسان والقرد الراقي

قال السير « أرثر » : —

لشد ما نجد من الشبه المحكم بين مخ الانسان ومخ هذا النوع من القردة ، لا سيما بعد ما أجراه علماء الاطباء الجراحين وعلماء النفس من التجارب الدقيقة ، الذين استخلصوا بعد هذه التجارب الكثيرة ما أقنعهم بصحة هذا الرأي ، وقد أوجز الاستاذ « اليوت سميث » نتيجة هذه الباحث منذ أشهر قلائل فقال — :

ليس في تركيب مخ القرد ناحية واحدة تخالف تركيب المخ الانساني ، وليس لذلك الأخير وجه مهما دق يخالف الأول فيه ، اللهم الا أمر واحد يميز أحدهما من الآخر ، ذلك هو اختلاف الكمية التي في كليهما من المخ

قال السير « أرثر كيث » — :

فهذا الفرق وحده بين الكمية المخية ، هو سر تفوق الانسان على القرد ، وهو وحده السبب في استطاعة الأول ما لم يستطعه الثاني ، ولهذا السبب وحده ، اكتسب الانسان تلك القوى المدهشة التي أعانته على الشعور والفهم والعمل والكلام والتعلم

ولقد اهتدى العلامة « داروين » بعد درسه هذا الموضوع عدة سنوات ، درساً طويلا مضنيا ، وبعد ان محصه تمحيصا وقلبه على كل وجه ، الى الاقتناع بان كل خلاف — مهما عظم — بين عقليتي القرد والانسان انما هو اختلاف في الدرجة لا في النوع ، وجاء علماء النفس الحديثون يبحثون ويمحصون ، فلم يصلوا الى اكثر

من الاعتراف بصحة هذه النتيجة التي وصل اليها « داروين » من قبل ، ومهما يكن من امر ، ومهما يسلك الباحثون من الطرق ، فانهم واصلون بلا شك الى ان هذا المخ الانساني الراقي هو سليل ذلك المخ الأقل منه رقياً ، وانه اكتسب هذا الرقي على مر العصور وكر الادهار ، حسبما يقرره مذهب النشوء والارتقاء !

وهناك نقط أخرى تبين شدة المشابهة بينهما وهي :

انه ثبت من الاجراءات الكيميائية التي جربها العلماء في تحليل دم الانسان والقرد العالي ، ان نوعهما واحد ، وان المؤثرات الكيميائية تحدث في كليهما أثراً واحداً كذلك رأوا أن القردة العالية هي معرضة — بطبيعة تركيبها الجثماني — الى نفس الأمراض التي يتعرض لها الناس

ولقد رأوا زيادة على ذلك — تماثلا بينهما غايه في الغرابة ، فعظام هذا كعظام ذاك والعضل كالعضل والأعضاء كالأعضاء وبناء الجسمين متقارب الى أبعد مدى التقارب والمماثلة ، ولا يفوتنا أن الصدر والذراعين محكما التشابه أيضاً ، وان القردة تستعمل يديها في شبه ما يستعمل الناس أيديهم من تناول الطعام بهما الى غير ذلك من الاشياء ، كذلك تستخدم القردة أرجلها في السير كما يسير الناس ، ولكثير من الناس القدرة على امساك الاشياء بأصابع أقدامهم كما يفعل القردة .

وهنا ذكر الاستاذ عدة أوجه أخرى للمشابهة ، هداه اليها العلم والتجاريب الحديثة ، وهي تؤيد وجهة نظره ، منها تشابه الخلايا وتأثرها في كلا النوعين تأثراً واحداً الى غير ذلك من الاشياء التي تعني العلماء ، ثم قال :

وإن أهم ما عمل إلى الآن في تأييد نظرية داروين واثبات صحتها ، هو ما اكتشف حديثاً من « الحفريات » التي عاشت قبل عصور التاريخ ، وقد رأينا هذه الحفريات ما لا يدع عندنا مجالا للشك في ان الانسان قد نشأ وترقى — على كر العصور — من هذه الانواع حتى بلغ رتبته الحالية الآن من الرقي

وبعض هذه الحفريات تمثل الانسان الذي عاش في تلك العصور السحيقة وشابه القردة العليا والمظنون ان ذلك كان منذ نحو نصف مليون من السنين ، وقد

وجدوا فيها ما أقنعهم بعد درسها وفحصها واختبارها علمياً ما أقنعهم عاماً باصالة رأي داروين

وليس هنا مجال الافاضة في شرح تلك الخطوات التي خطاها العلماء خطوة خطوة ، وبيان تفاصيل واسعة ، فقد طال الموضوع ولسنا جديرين أن نمتحن صبر القارىء وحسبنا ان نذكر هذه الكلمات التي ختم بها الاستاذ « كيث » كلامه ، وأوجز فيها خلاصة قوله ورأيه فقال :

« ان كل ما حصل هو أننا بدأنا البحث ، ولا يزال أمامنا الشيء الكثير مما لم نفهمه بعد ، فهل يجيء اليوم الذي نستطيع فيه ان نوضح السبب الذي نجم عنه تقدم المخ الانساني هذا التقدم العظيم ، على حين ظل ابن عمه « الغورلا » متأخراً عنه بمراحل ومفازات شاسعة ؟

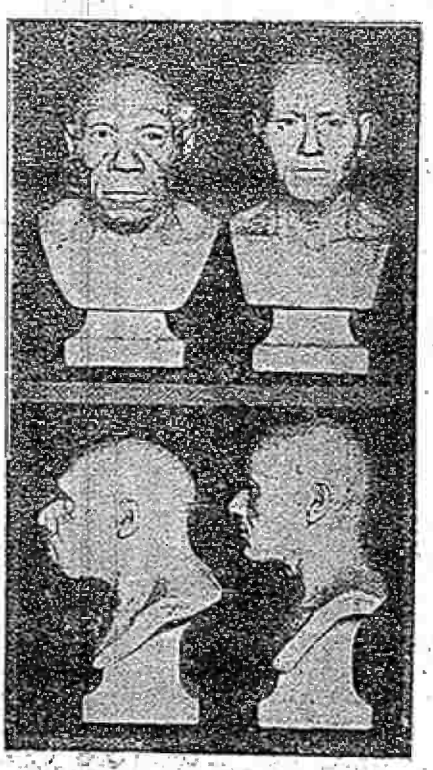

تماثيل نصفية يتبين منها القارىء رقي الانسان ومدى تطوره ، الى اليسار تمثالان الواحد فوق الآخر الانسان الذي عاش منذ أربعين ألف سنة مضت.

والى يمينهما تمثالان الانسان الذي عاش منذ خمسة عشر ألف عاماً

ولا شك أن القارىء سيرى بأدنى تأمل — الذكاء والشعور الظاهرين على وجهي التمثالين المنشورين الى اليمين !

وهل نستطيع أن نوضح السبب الذي جعل احدى هاتين الأسرتين ، الانسية والقردية » تظهر في احدهما آثار الوراثة ، على حين لا تظهر في الأخرى ، ولماذا نما هذا التقدم واطرد في جنس دون الآخر

وربما تمكن الانسان ان يهتدي الى الاجابة على هذه الاسئلة وأشباهها من الخفايا الغامضة ، اذا درس الاطوار التي مر بها الانسان نفسه ، وأثر هذه الاطوار في تقدمه وارتقائه

لقد عرف الانسان في هذه الايام ما تحدثه « الحقن » الخاصة من الأثر المدهش في تغيير جسمه ، ورأى من عجائب المكتشفات الطبية التي استطاعت أن تواصل تقدم جنس من الحيوان حتى يصبح مغايراً لفصيلته الأولى ، وتكسبه مزايا جديدة غير الاولى

وعرف الناس الآن قدرة الاطباء على نقل غدد مكان أخرى ومزج دم بدم واجراء تغييرات كبيرة في الجسم الانساني كله

وعندي ان امثال هذه الاشياء تعيننا — الى حد كبير — على فهم كثير من هذه الاسرار ، فاذا أضفنا الى ذلك دراسة عميقة منظمة لقانون الوراثة فسيصل الانسان — على طول الزمن — لا إلى كتابة تاريخ هذه النشأة مفصلا ، بل الى ايضاح الحوادث والظروف التي اعتورت تكوينه ، وتعليل أسبابها تعليلا صحيحاً ، والاهتداء الى السر في حدوث ما حدث من هذه التطورات جميعاً !

الانسان والقرد

قال الأستاذ الزهاوي :

لا يغضب الناس من مقالي ... إن قلت: « أصل الانسان حيوان! »
فان انسانا ابن قرد ، ... أفضل من قرد ابن إنسان

وقال الاستاذ العقاد :

قالوا: « ابن آدم من قرد » ، فقلت لهم ... كلا ، ولكنه - في الدَّجر [1] - نعبان
إن أصبح القرد في خلق يماثله ، ... ففي خلائقه — لا شك — برهان

(١) أي في الاصل